بسم الله الرحمن الرحيم

٩٣ - سورة الضحى

مكية وآيها إحدى عشرة .

لطيفة :

قال ابن كثير : روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد. فلما بلغت (والضحى) قال لي : كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة. فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك . وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبيّ بن كعب فأمره بذلك. وأخبره أبيّ أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي ، من ولد القاسم بن أبي بزة . وكان إماماً في القراءات . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازيّ وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيليّ ، قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في (شرح الشاطبية) عن الشافعيّ أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر (والليل إذا يغشى) . وقال آخرون: من آخر (والضحى) وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول (الله أكبر) ويقتصر، ومنهم من يقول (الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر) وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى، أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ، وفترتلك المدة، ثم جاء الملك فأوحى إليه (وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . فالله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلضُّحَىٰ)

[٢] (وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ)

[٣] (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ)

[٤] (وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ)

[٥] (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ)

« وَٱلضُّحَىٰ » تقدم فى سورة (وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا) تفسير الضحى بالضوء وارتفاع النهار ارتفاعاً عالياً «وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ» أى اشتد ظلامه. وأصله من التسجية وهى التغطية، لستره بظلمته . كما فى آية[1] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا) « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ » جواب القسم . أى : ما تركك وما قطعك قطع المودّع .

قال الشهاب فى (العناية) : فالتوديع مستعار استعارة تبعية للترك هنا . وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى . فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعزّ مفارقته . كما قال المتنبى:

حشاشةُ نفس وَدَّعت يوم وَدَّعوا فلم أَدْرِ أىَّ الظاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ

وقال فى (شرح الشفاء) : الوداع له معنيان فى اللغة : الترك وتشييع المسافر . فإن فسر بالثانى هنا على طريق الاستعارة ، يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركه أصلًا . فإنه معه أينما كان. وإنما الترك ، لو تصور فى جانبه ، ظاهر مع دلالته بهذا المعنى على الرجوع. فالتوديع إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده . وإليه أشار الأرجانى بقوله :

(١) [٧٨ / النبأ / ١٠] .

إذا رأيت الوداعَ فاصبرْ ولا يُهمنَّك البعادُ
وانتظر العَوْدَ عن قريبٍ فإن قلب الوداع (عَادُوا)

فقوله (وَمَا قَلَىٰ) مؤكد له . (قال) : وهذا، لم أر من ذكره مع غاية لطفه . وكلهم فسروه بالمعنى الأول . ولما رأوا صيغة الفعل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه . فيقتضى الانقطاع التام ، قالوا : إن المبالغة فى النفى لا فى المنفىّ فتركه لحكم عليه ، لا لضرره بهجره . أو لنفى القيد والمقيد . وقرئ (مَا وَدَعَكَ) بالتخفيف . وورد فى الحديث[1] شر الناس من ودعه الناس اتقاء فحشه . وورد فى الشعر ، كقوله[2] :

فَكَانَ مَا قَدَّموا لأنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نفعاً من الذى وَدَعُوا

ولهذا قال فى (المصباح) بهذا : اعلم أن قولهم ، فى علم التصريف ، أماتوا ماضى يدع ويذر خطأ . وجعله استعارة من الوديعة تعسّف . انتهى .

وكذا قال فى (المستوفى) : أنه كله ورد فى كلام العرب ، ولا عبرة بكلام النحاة فيه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وإن كان نادر . انتهى .

وقوله تعالى «وَمَا قَلَىٰ» أى: وما أبغضك . والقالى : المبغض . يعنى ماهجرك عن بغض. قال الشهاب : وحذف مفعول (قلى) اختصاراً للعلم به، وليجرى على نهج الفواصل التى بعده ، أو لئلا يخاطبه بما يدل على البغض .

تنبيه :

روى ابن جرير[3] عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ لما نزل عليه القرآن أبطأ عنه جبريل أياما،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٤٨ ـ باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ، حديث رقم ٢٣٣٠ ، عن عائشة .

(٢) أنشده فى اللسان (مجلد ٨ ص ٣٨٤) الطبعة البيروتية .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فعُيِّر بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله هذه الآية، وفى رواية : إن قائل ذلك امرأة أبى لهب ، وفى أخرى أنها خديجة رضى الله عنها . ولا تنافى، لاحتمال صدوره من الجميع. إلا أن قول المشركين وقول خديجة ـ إن صح ـ توجع وتحزن ـ وفى رواية إسمعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحى حتى شق ذلك على النبى ﷺ وأحزنه . فقال : لقد خشيت أن يكون صاحبى قلانى . فجاء جبريل بسورة والضحى « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ » قال ابن جرير[1]: أى وللدار الآخرة ، وما أعد الله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا ومافيها. يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذى لك عند الله خير لك منها . وقال القاضى : أو : لنهاية أمرك خير من بدايته . فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد فى الرفعة والكمال « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » أى يعطيك من فواضل نعمه فى العقبى حتى ترضى ، وهذه عِدَةٌ كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين ، بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام ، وفشوّ دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما ادخر له من الكرامات التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالجملة ، فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدارين ، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهذا غاية الإحسان والإكرام .

تنبيه :

قال فى (المواهب اللدنية) : وأما ما يغترّ به الجهال من أنه لا يرضى واحدا من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهو من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم . فإنه صلوات الله عليه وسلامه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة . وقد ولع الحشوية بتقوية أمثال هذه الآثار المفتراة تغريراً للجهال وتزيينا لموارد الضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ)

[٧] (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ)

[٨] (وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ)

[٩] (فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[١٠] (وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[١١] (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَـَٔاوَىٰ » قال أبو السعود : تعديد لما أفاض عليه من أول أمره إلى ذلك الوقت ، من فنون النعماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود . فيطمئن قلبه وينشرح صدره ، والهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفىّ على أبلغ وجه. كأنه قيل: قد وجدك الخ . والوجود بمعنى العلم .

روى أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر . وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته ، وذلك إيواؤه « وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ » أى غافلا عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان ، فهداك إليه وجعلك إماماً له ، كما فى آية[1] (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ) .

قال الشهاب : فالضلال مستعار من (ضل فى طريقه) إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة ، من طريق الاكتساب « وَوَجَدَكَ عَآئِلًا » أى فقيراً « فَأَغْنَىٰ » أى فأغناك بمال خديجة الذى وهبته إياه . أو بما حصل لك من ربح التجارة « فَأَمَّا

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ » فلا تغلبه على ماله فتذهب بحقه، استعطافاً منك له « وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ » قال ابن جرير[1] : أى وأما من سألك من ذى حاجة فلا تنهره ، ولكن أطعمه واقض له حاجته . أى لأن للسائل حقا، كما قال تعالى[2] (وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

وقد ذهب الحسن ـ فيما نقله الرازىّ ـ إلى أن المرادمن السائل من يسأل العلم. فيكون فى مقابلة قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ) وهكذا قال ابن كثير: أى وكما كنت ضالا فهداك الله، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال الإمام: ويؤيد هذا المعنى ماورد فى أحوال الذين كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام بيان مايشتبه عليهم. فمنهم أهل الكتاب المارون . ومنهم الأعراب الجفاة . ومنهم من كان يسأل عما لايسأل عنه الأنبياء . فلا غرو أن يأمره الله تعالى بالرفق بهم ، وينهاه عن نهرهم ، كما عاتبه على التولّى عن الأعمى السائل ، فى سورة عبس . انتهى .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » أى بشكرها وإظهار آثارها ، فيرغب فيما لديه منها ، ويحرص على أن تصدر المحاويج عنها . وهذا هو سر الأمر بالتحدث بها. وفى الآية تنبيه على أدب عظيم . وهو التصدى للتحدث بالنعمة وإشهارها، حرصاً على التفضل والجود والتخلق بالكرم ، وفراراً من رذيلة الشح الذى رائده كتم النعمة والتمسكن والشكوى .

قال الإمام: من عادة البخلاء أن يكتموا مالهم، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل. فلا تجدهم إلا شاكين من القل. أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه . فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين. فهذا هو قوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أى إنك

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٧٠ / المعارج / ٢٤و٢٥] .

لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع فى البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من الفجفجة التى يتنزه عنها النبىّ ﷺ . ولم يعرف عنه فى امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض . ولـكن الذى عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً . وقد يقال : إن المراد من النعمة النبوة . ولـكن سياق الآيات يدل على أن هـذه الآية مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ عَآئِلًا) فتـكون النعمة بمعنى الغنى . ولو كانت بمعنى النبوة ، لـكانت مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا) وقد علمت الحق فى مقابله . والله أعلم .